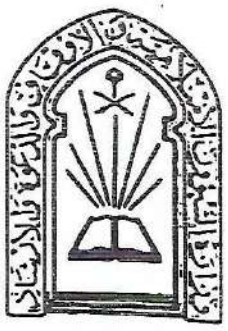

المملكة العربية السعودية
وزارة الشئون الإسلامية
والأوقاف والدعوة والإرشاد

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

الجزء الحادي والعشرون

منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم الدولية

ح وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، ١٤٢٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنيّة أثناء النّشر
باجوده ، حسن محمد
التفسير البسيط للقرآن الكريم. / حسن محمد باجوده ـ الرياض ،١٤٢٤هـ
٣٣٩ ص ، ١٧×٢٥ سم
ردمك : ٦ ـ ٤٥٣ ـ ٢٩ ـ ٩٩٦٠
١ ـ القرآن ـ التفسير الحديث أ ـ العنوان
ديوي ٦ ,٢٢٧ ١٤٢٤/٥٠٦٧

رقم الايداع : ١٤٢٤/٥٠٦٧
ردمك : ٦ ـ ٤٥٣ ـ ٢٩ ـ ٩٩٦٠

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

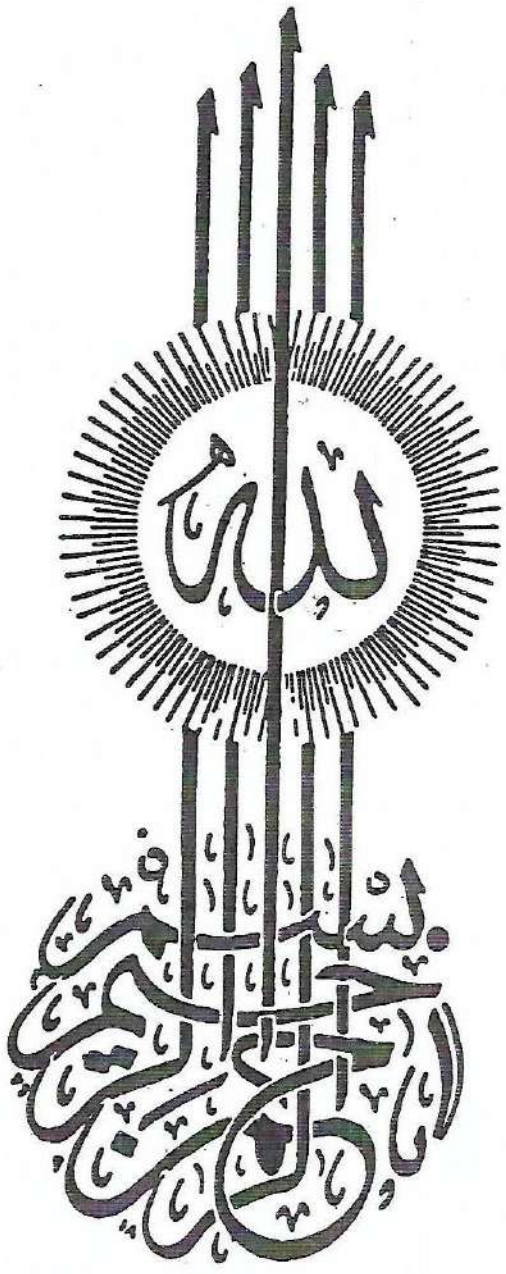
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء الحادي والعشرين من القرآن الكريم، يغطّي تمام سورة العنكبوت، وسور الرّوم ولقمان والسّجدة، وبعضاً من سورة الأحزاب. وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء العشرين السّابقة. إنّ هذا الجزء الحادي والعشرين، هو ميدان التّفسير للمتسابقين، في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، من بين الحقول الخمسة في مسابقة الملك عبدالعزيز الدّوليّة الرّابعة والعشرين لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، الّتي عقدتها وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، برئاسة معالي وزيرها الشّيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمّد آل الشيخ، في أثناء الفترة من٦/ ٨/ ١٤٢٣هـ حتّى ١٤/ ٨/ ١٤٢٣هـ الموافق ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٢م حتى ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٢م. وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال الّتي تمّت في مجال التّفسير، في أثناء المسابقة الرّابعة والعشرين . علماً بأنّ ميدان المتسابقين في المسابقة الخامسة والعشرين إن شاء الله تعالى، هو الجزء الثاني والعشرون.

وأنتهز هذه المناسبة المباركة، كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة الّتي منحتني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الّذي حرصت فيه كما حرصت في سابقيه، على أمورٍ أهمّها ثلاثة:

١ـ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات.

٢ـ أن أشير إلى الّدروس الّتي يمكن أن تستفاد.

٣ـ أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هـذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنّه سميعٌ مجيب.

﴿ربّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربّنا ولاتَحْمِلْ علينا إصْراً كما حملته على الّذين من قبلنا. ربّنا ولاتحمّلنا ما لاطاقة لنا به. واعفُ عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الأربعاء ١١/ ٢/ ١٤٢٠هـ

الموافق ٢٦/ ٤/ ١٩٩٩م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنية البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

أولاً
تمام سورة العنكبوت

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ
وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ
ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ
مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ
لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى
ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ
ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُۥ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ
جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بين يدي التّفسير

(١)

(منْ أهل الكتاب ومن العرب من يؤمن بالقرآن الكريم الّذي أوحي إلى النّبيّ الأمّيّ ومنهم من يكفر، وثواب المؤمنين وعذاب الكافرين المستهزئين)

الآيات (٤٦ ـ ٥٥)

ينهى السّياق الّذين آمنوا عن أن يجادلوا أهل الكتاب ويناقشوا اليهود والنّصارى إلاّ بالطّريقة الّتي هي أحسن من كلّ طريقة، تمشّياً مع دعوة الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنين بأنّ يدعو إلى سبيل ربّه عزّ وجلّ بالحكمة والموعظة الحسنة وأنّ يجادل الطّرف الآخر بالطّريقة الّتي هي أحسن، والأسلوب الّذي هو أمثل. ويستثنى السّياق الّذين ظلموا من أهل الكتاب، فإنّ من حقّنا بل من واجبنا أنّ نعاملهم بالمثل وأنّ نقارعهم باللّسان وبالقلم وبالسّنان. وفي حال إصرار أهل الكتاب على البقاء يهوداً أو نصارى نحن مأمورون بأنّ نقول لهم : آمنّا بالقرآن الكريم الّذي أنزل إلينا ، وبالتّوراة الإنجيل اللّذين أنزلا إليكم، وإلهنا وإلهكم واحدٌ لا شريك له، فلا إله غيره ولا ربّ سواه، ونحن له مسلمون مذعنون عابدون مخلصون. وكما أنزل الله تعالى الكتب السّماويّة السّابقة على النّبيّين السّابقين، أنزل إليك يا محمّد هذا الكتاب العزيز والقرآن المجيد. فالّذين آتيناهم الكتاب السّماويّ من قبل ويتلونه حقّ تلاوته يؤمنون بالقرآن الكريم وأنّه كلام ربّ العالمين، لأنّ كتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضاً. ومِنْ هؤلاء العرب من يؤمن بالقرآن الكريم أيضاً. إنّ الّذين يجحدون آيات الله تعالى بعد استيقانٍ بأنّها من عند الله تعالى أولئك هم الكافرون بالله تعالى، الجاحدون نعمه العظيمةً وآلاءه الجسيمة.

وما كنت يا محمّد تقرأ بعينك مِنْ قَبْلِ القرآن الكريم أيّ كتابٍ سماويّ وما كنت تكتبه بيمينك وتخطّه بيدك. إنّك لو كنت قارئاً كاتباً لشكّ أصحاب الباطل في نبوّتك، وارتابوا في القرآن الكريم، وقالوا إنّ النّبيّ المنتظر أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولاتّخذوا قراءتك وكتابتك ذريعةً لكفرهم. إنّك يا محمّد لا تقرأ ولا تكتب وقد أوحينا إليك ما يملأ كلّ قلبٍ خشية، وكلّ عقلٍ حكمة، وكلّ أذنٍ ذكرى، ومع ذلك يصرّ المبطلون على باطلهم، عناداً واستكباراً، مع أنّ نعوتك يا محمّد هي الّتي يجدها أهل الكتاب في الّتوراة والإنجيل ويعرفونها. إنّ هذا القرآن الكريم آياتٌ واضحات المعاني بيّنات المرامي، محفوظةٌ بفضل الله تعالى في صدور الّذين آتاهم الله تعالى علماً لدنّيًا من المؤمنين. إنّ الّذين يجحدون آيات الله تعالى بعد علمٍ ومعرفةٍ عناداً واستكباراً هم الظّالمون الّذين يضعون العبادة في غير موضعها فيظلمونها ويشركون مع الله تعالى سواه.

وتمادياً في العناد والاستكبار يعرض كافرو العرب، وهم فرسان البلاغة وأئمّة البيان، عن معجزة القرآن الكريم البيانيّة الكبرى الخالدة النّافعة لهم بأكثر من أيّ آيةٍ أخرى وللإنسانيّة جمعاء ويطلبون أن تنزل عليه ﷺ آياتٌ أخرى ماديّة. إنّ كفّار العرب عموماً، قريشٍ خصوصاً يَنْبِذون وراءهم ظِهْرِيّاً معجزة القرآن الكريم البيانيّة الخالدة ويطلبون آياتٍ محسوسةً كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. ولمّا كان ربّ العزّة قد سبق علمه إلى أنّ الكافرين متعنّتون مصرّون على الكفر حتّى في حال تحقّق المعجزات الّتي اقترحوا فإنّ الحقّ عزّ وجلّ يأمر المصطفى ﷺ بأن يقول للمعاندين إنّ الآيات عند الله تعالى وحده لا شريك له يخصّ كلّ نبيٍّ منها بما يؤمن على مثله البشر، وقد خصّني عزّ وجلّ بهذه المعجزة البيانيّة وأرسلني بها إلى أمة البيان، وهأناذا النّذير البيّن الّنذاراة بين يدي العذاب الشديد للكافرين.

أعميت قلوب الكافرين وبصائرهم ولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك يا محمّد هذا الكتاب العزيز الّذي يُتْلَى عليهم في كلّ وقت كي يتدبّروه ويهتدوا به. إنّ في إنزال الكتاب العزيز إليك واصطفائك به لرحمةً للمؤمنين تحدوهم إلى جنّات

النّعيم، وعبرة تملأ قلوبهم خشيةً من الله تعالى تحملهم على السّير دائماً في الصّراط المستقيم، بعون الله تعالى. ولمّا كان المشركون مصرّين على التّكذيب فإنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ بأن يقول لأولئك المعاندين: كفى الله شهيداً بيني وبينكم بأنّي رسوله وأنّكم مصرّون على العناد. يعلم عزّ وجلّ ما في السّماوات والأرض، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فيهما جلّ أوهان. والّذين آمنوا بالآلهة المزعومة وكفروا بالله تعالى المستحقّ أنّ يُعْبَدَ وحده دون سواه أولئك هم الخاسرون في دنياهم وأخراهم.

ولا يكاد العجب ينتهي من هؤلاء الكافرين الصّادين عن سبيل الله تعالى المعاندين حينما يزدادون سوءاً فيسخرون ويستهزئون. إنّهم يستعجلون العذاب على جهة السّخرية والاستهزاء. ولولا أنّ ربّ العزّة والجلال جعل عذابهم مؤجّلاً وقته ومحدّداً موعده لجاءهم العذاب عاجلاً وحلّ بهم الهلاك فورا. وإنّ العذاب ليأتينّ أولئك المستهزئين بصورةٍ أكيدةٍ مستقبلا إنّ لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا، وليصلنّ إليهم على حين غفلةٍ منهم، وهم لا يشعرون بقرب مجيئه ولا يعلمون بوقت وصوله. إنّهم يستعجلونك يا محمّد العذاب. وبالإضافة إلى عذاب الدّنيا الّذي قد يحلّ بهم، على غرار عذاب كفّار قريش بهزيمة بدر، هنالك عذاب جهنّم الّتي يحيط بالكافرين نارها من كلّ الجهات يوم القيامة. وفي ذلك اليوم يغطّيهم العذاب ويشملهم من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم ومن كلّ الجهات، ويقول ملائكة العذاب لهم : ذوقوا العذاب جزاء ما كنتم تعملون في الحياة الدّنيا من سيّئات.

(٢)

(ثواب المهاجرين والمجاهدين كبيرٌ في الأولى والآخرة، وعذاب الكافرين الجاحدين نعم الله تعالى عظيمٌ في الأولى والآخرة)

الآيات (٥٦ ـ ٦٩)

ينال المؤمنون المهاجرون المجاهدون ثواب أعمالهم. إنّ ربّ العزّة والجلال ينادى عباده الّذين أضيفوا إليه إضافة تشريف ويقول لهؤلاء المؤمنين : إنّ أرضي واسعةٌ فإيّاي فاعبدوني وحدي لا شريك لي. إنّكم حينما يحال بينكم وبين أن تعبدوني بحريّة مطلقة، عليكم أنّ تهاجروا من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان. ومعروفٌ أنّ المؤمنين في مكّة المكرّمة الّذين يوجّه إليهم الخطابُ أساساً، هم أوّل من لبّى النّداء ومارس الهجرة إلى كلٍّ من الحبشة والمدينة المنوّرة. وقد صدق الله تعالى المهاجرين وعده فوجدوا في كلٍّ من الحبشة والمدينة المنوّرة السّعة في كلّ شيء. السَّعة في حريّة العبادة، والسَّعة في الرّزق، والسَّعة في تمكّنهم من وضع أنوف الكافرين في الرَّغام والتّراب بعدد مرّات خطوهم من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، وبعدد مرّات خطوهم وراء ذلك إلى أن لقوا الله تعالى. وتأكيداً لتسلية هؤلاء المهاجرين المجاهدين يقرّر السّياق أنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت، وفيهم بطبيعة الحال المشركون الّذين أرغموا المؤمنين على الهجرة، ثمّ هم جميعاً إلى الله تعالى راجعون، كي ينال المؤمنون الثّواب والكافرون العقاب. إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لينزلنّهم الله تعالى من الجنّة غرفها وأبنيتها العالية، تجرى من تحتها أنواع الأنهار، خالدين فيها أبداً، ونعم هذا الأجر ثواباً لمن يعملون الصّالحات. إنّهم الّذين صبروا على البلاء والطّاعات وعن المعاصي والّذين يتوكّلون على الله تعالى وحده لا شريك له حقّ التّوكّل.

وتسليةً للمهاجرين الّذين استولى المشركون على أموالهم فازدادوا فقراً يبيّن السّياق بأنّ هناك الكثير من المخلوقات الّتي تدبّ على ظهر الأرض والّتي لا تحمل رزق يومها، الله سبحانه وتعالى يرزقها وإيّاكم أيّها المهاجرون المجاهدون. إنّ الله تعالى هو السّميع لكلّ قول، العليم بكلّ نيّةٍ وفعل.

وهؤلاء المشركون يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة. فأنت يا محمّد ويا أيّها الإنسان لو سألتهم من خلق السّماوات السّبع والأرضين السّبع وسخّر الشّمس والقمر دائبين ليقولُنّ الله تعالى هو الخالق المدبّر المقدّر. فكيف يُصْرَف أولئك المشركون عن إفراد الله تعالى بالعبادة ويشركون معه جلّ وعلا في العبادة غيره وكيف لا يقرّون بتوحيد الألوهيّة!

وهؤلاء المشركون الّذين بسط الله تعالى لهم الرّزق هل يظّنون أنّ الله تعالى بسط لهم الرّزق لكرامتهم عليه عزّ وجل، وضيّق على المؤمنين الرّزق لهوانهم عليه! إنّ لله تعالى في ذلك الحجّة البالغة، وكلٌّ من الغنيّ والفقير موطن اختبار، إنّ الله تعالى بكلّ شيءٍ عليم، فيبسط الرّزق ويضيّقه لحكمةٍ بالغة.

ومن الأدلّة كذلك على إقرار المشركين بتوحيد الرّبوبيّة أنّك لو سألتهم من نزّل من السّماء ماءً فراتاً فأحيا به الأرض من بعد جدبها ليقولنّ الله تعالى هو وحده الّذي فعل ذلك. فلماذا لا يقرّ المشركون بتوحيد الألوهيّة، ولماذا لا يفردون الله تعالى بالعبادة! لأنّهم عطّلوا عقولهم ووجدوا آباءهم في ضلالةٍ فساروا خلفهم واقتفوا أثرهم.

إنّ على النّاس جميعاً أن يعلموا أنّ هذه الحياة الدّنيا بشأن غير الأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام والّتي أريد بها وجه الله تعالى، ليست سوى لهوٍ وعبث إن كانت الأعمال غير جادّة، ولعبٍ وخسرانٍ إن كانت أعمالاً جادّة، لأنّها أعمالٌ لا يتوافر فيها الشّرطان لتفضّل الله تعالى بقبولها، شرط الصّلاح بمقياس الإسلام والإصابة، وشرط الإخلاص بأن يراد بها وجه الله تعالى. إنّ على النّاس جميعاً أن يؤمنوا ويعملوا صالحاً ويريدوا بأعمالهم وجه الله تعالى كي ينالوا

الحياة الحقيقيّة الأبديّة يوم القيامة في الجنّة الّتي عرضها السّماوات والأرض والّتي أعدّها الله تعالى للمتّقين. إنّ على النّاس جميعاً أن يعلموا ذلك ويعملوا بما علموا.

أمّا متى يقرّ مشركو مكّة ومن شاكلهم بتوحيد الألوهيّة فإنّ ذلك الإقرار يكون ساعة الخطر وحدها. إنّهم إذا ركبوا البحر في السّفينة دعوا الله تعالى مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون مع الله تعالى في العبادة الأصنام الّتي ضلّت عنهم ساعة الشّدّة وغابت لأنّهم يعلمون عجزها وهوانها. إنّهم يكفرون نعم الله تعالى بدل الشّكران عليها، وإنّهم يجعلون الحصول على متع الدّنيا الرّخيصة منتهى همّهم. إنّهم سوف يعلمون حقيقة خسرانهم مستقبلا.

ومن النّعم الّتي جحدها مشركو مكّة نعمة الحرم الآمن الّذي يتخطّف النّاس من حوله قتلاً وسلباً وسبياً. إنّ مشركي مكّة يعبدون الأصنام العاجزة ولا يقومون بما يجب عليهم من شكر لله تعالى على نعمه بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. إنّهم حقّاً يستحقّون أشدّ الإنكار على كفرهم وكفرانهم. إنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذباً ككفّار مكّة الّذين جعلوا لله تعالى أنداداً والّذين كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم، رسولاً كريماً، وقرآناً عظيماً، ودیناً مستقيما. إنّ في جهنّم مثوىً للكافرين ومأوى.

أمّا الّذين جاهدوا في سبيل الله تعالى بألسنتهم وأقلامهم وجوارحهم فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يهديهم السّبل الّتي تبلّغهم رضوانه وتدخلهم جنّاته. وإنّ الله تعالى لمع المحسنين بالتّسديد والتّأييد.

التّفسير

(١)

(منْ أهل الكتاب ومن العرب من يؤمن بالقرآَن الكريم الّذي أوحي إلى النّبيّ الأمّيّ ومنهم من يكفر، وثواب المؤمنين وعذاب الكافرين المستهزئين)

الآيات (٤٦ ـ ٥٥)

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ينهى الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ والمؤمنين في كلّ العصور عن أنّ يجادلوا أهل الكتاب ويناقشوا اليهود والنّصارى إلاّ بالطّريقة الّتي هي أحسن من كلّ طريقة. وهذه الطّريقة الّتي هي أحسن، كما أنّها مطلوبةٌ مع أهل الكتاب، هي كذلك مطلوبةٌ مع غيرهم، تمشّياً مع ما جاء في الذّكر الحكيم في الإرشاد إلى الطّريقة المُثْلَى في أدب الدّعوة إلى الله تعالى وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا: (١) ﴿أُدع إلى سبيلِ ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتي هي أحسن. إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.

وتستثنى الآية الكريمة الّذين ظلموا من أهل الكتاب إذا طعنوا في ديننا فإنّ من حقّنا بل من واجبنا أن نعاملهم بالمثل، وأن نذبّ عن ديننا بكلّ الوسائل المشروعة من اللّسان والقلم والسّنان.

إنّه لا إكراه في الدّين، وفي حالة إصرار أهل الكتاب على البقاء على دينهم نحن من حقّنا بل من واجبنا أن نقول لهم: آمنّا بالقرآن الكريم الّذي أُنْزِل إلينا، وبالتّوراة والإنجيل اللّذين أنزلا إليكم، والهنا وإلهكم إلهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هو، ونحن له عزّ وجلّ مستسلمون لإرادته، خاضعون لمشيئته، نعبده وحده لا شريك له، ولا نشرك معه عزّ وجلّ في العبادة سواه.

---

(١) سورة النّحل ١٢٥

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

وكذلك أنزلنا إليك الكتاب : وكما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمّد من الرّسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب (١).

فالّذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به : فالّذين آتيناهم الكتاب من قبلك من بنى إسرائيل يؤمنون به(٢).

ومن هؤلاء من يؤمن به: يعنى العرب من قريش وغيرهم (٣)

وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون: الجحود نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه(٤) وإنّما يكون الجحود بعد المعرفة(٥) وما يجحد بأدلّتنا وحججنا إلاّ الّذي يجحد نعمنا عليه وينكر توحيدنا وربوبيّتنا على علمٍ منه عناداً لنا(٦).

وكما أنزنا الكتب السّماويّة السّابقة على النّبيّين السّابقين أنزلنا إليك يا محمّد هذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد. فالّذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى ويتلونه حقّ تلاوته يؤمنون بالقرآن الكريم، لأنّ كتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضاً. ومن هؤلاء العرب من قريش وغيرهم من يؤمن بهذا الكتاب العزيز ويتّبع الرّسول النّبيّ الأمّيّ محمّد بن عبدالله ﷺ .

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٤

(٢) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٩٤

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جحد» ١/ ١١٥

(٥) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

(٦) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

وما يجحد بآيات الله تعالى البيّنات بعد علمٍ بها، وما ينكر معجزات الله تعالى الواضحات الباهرات الّتي استيقنت النّفوس أنّها من عند الله تعالى إلاّ الكافرون المنكرون توحيد الله تعالى عناداً، الجاحدون نعمنا استكبارا.

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ
وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ
ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

وما كنت : يا محمّد (١)

تتلو : تقرأ (٢)

من قبله : من قبل هذا الكتاب الّذي أنزلته إليك (٣)

ولا تخطّه بيمينك: ولم تكن تكتب بيمينك (٤) وخرج مخرج الغالب(٥)

إذاً لارتاب: إذاً لشكّ بسبب ذلك في أمرك وما جئتهم به من عند ربّك من هذا الكتاب الّذي تتلوه عليهم(٦)

المبطلون: القائلون إنّه سجعٌ وكهانة وأنّه أساطير الأوّلين(٧) والباطل نقيض الحقّ وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه(٨) والإبطال يقال في إفساد الشّيء وإزالته. حقّاً كان ذلك الشّيء أو باطلا. والمبطل من يقول شيئاً لا حقيقة له،

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٤

(٢) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

(٣) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

(٤) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٩٥

(٦) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

(٧) تفسير الطبرى ٢١/ ٤

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بطل» ١/ ٦٤

والمبطل الّذي يُبْطِل الحق(١).

بل هو آياتٌ بيّناتٌ في صدور الّذين أوتوا العلم : بل هذا القرآن آياتٌ بيّناتٌ في صدور الّذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمّد ﷺ(٢).

وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون : وما يجحد نبوّة محمّد ﷺ وأدلّته وينكر العلم الّذي يعلم من كتب الله الّتي أنزلها على أنبيائه ببعث محمّد ﷺ ونبوّته ومبعثه إلاّ الّذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله عزّ وجل(٣).

وما كنت يا محمّد تقرأ بعينيك مِنْ قبْلِ إيحاء هذا الكتاب العزيز إليك وما كنت تتلو من كتاب، وما كنت تكتبه بيدك وتخطّه بيمناك، فإنّك يا محمّد الرّسولُ النّبيُّ الأمّيُّ الّذي لاَ يقرأ ولا يكتب على نحو ما بيّنّا في كلٍّ من التّوراة والإنجيل. إنّك يا محمّد لو كنت قارئاً كاتباً لارتاب المبطلون فيك، وشكّ الّذين يحرصون على إزهاق الحقّ بباطلهم فيما أوحينا إليك من الكتاب، ولاتّخذوا ذلك ذريعةً يعلّلون بها كفرهم، وسبباً يعلّقون به شكّهم. إنّ كلاًّ من كافرى أهل الكتاب والعرب يستمسكون بكفرهم وشكّهم دونما سبب. إنّك يا محمّد لو كنت قارئاً كاتباً لازداد المبطلون استمساكاً بباطلهم لأنّهم معاندون مستكبرون.

إنّ هذا القرآن الكريم آياتٌ بيّنات المعاني واضحات المرامي وكتابٌ عزيزٌ في صدور المؤمنين الّذين آتاهم الله تعالى من فضله علماً لدنّيّا، والّذين اصطفاهم الله تعالى وأكرمهم فأورثهم هذا القرآن المجيد والكتاب العزيز. إنّ هؤلاء المؤمنين المصْطَفَيْن الأخيار يحفظون عن ظهر قلبٍ هذا القرآن الكريم الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، ويعملون بمُحْكَمِه، ويؤمنون بمتشابِهِه، ويتلونه آناءً الّليل وأطراف النّهار.

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى في عَجُزِها أنّه لا يجحد بآيات هذا الكتاب العزيز بعد معرفةٍ واستيقانٍ أنّها كلام ربّ العالمين إلاّ الظالمون الّذين يضعون الشّيء في غير موضعه الكاذبون الّذين يشركون مع الله تعالى في العبادة سواه.

(١) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بطل» ١/ ٦٥

(٢) تفسير الطبرى ٢١/ ٥

(٣) تفسير الطبرى ٢١/ ٥

ومن البيّـن أنّ الآية الكريمة الأخرى تشـير إلى إحدى وسيلتـي حفظ الحقّ جلّ وعلا هذا الكتاب العزيز إلى يوم الدّين.

أمّا الوسيلـة الأولى فإنّها تيسير الله تـعالى القرآن الكريم علـى الألسنة كي تستوعبه الصّـدور، وتحفظه عن ظهر غيبِ القلوب، وتتدبّـره العقول. ويدلّ على هذه الوسيـلة الأولى لحفظ القرآن الـكريم اسم : القرآن. إنّ هذا الـقرآن الكريم الّذي تستوعبه صدور المؤمنين قد يسّر الله تعالى على الألسنة قراءته، وعلى الذّاكرة استيعابه، وعلى العقل تدبّره والتّفكّر فيه.

وأمّا الوسيلة الأخرى لحفظ الحقّ جلّ وعلا هـذا القرآن المجيد فإنّها الكتابة. ويدلّ على هذه الوسيلة الأخرى لحفظ القرآن الكريم اسم : الكتاب.

إنّ هذا القرآن الكريم والكتاب العزيز يُقْرأ في الصّورة الّتي نزل فيها ويُكْتب بأكثر من أيّ كتابٍ آخر، سماويٍّ أو غير سماويّ.

وإنّ حفظ هذا الكـتاب العزيز بهاتين الـوسيلتين معاً، الصّـدر والسّطر من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّـذي جاء في حفظ الحقّ جلّ وعلا له قولُه عزّ مِنْ قائل في سورة الحِجْر[1] : ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾.

---

(١) الآية ٩

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وقالوا : وقالت المشركون من قريش (١).

لولا أُنزِل عليه آياتٌ من ربّه: هلاّ أنزل على محمّد آيةٌ من ربّه تكون حجّةً لله علينا كما جعلت النّاقة لصالح والمائدة لعيسى(٢)

يُتْلَى عليهم : يُقْرأ عليهم(٣).

وذكرى : يتذكّرون بما فيه من عبرةٍ وعظةٍ(٤)

كفى بالله : كفى الله(٥).

آمنوا بالباطل: صدّقوا بالشّرك فأقرّوا به(٦)

وكفروا بالله : وجحدوا الله(٧).

الخاسرون : المغبونون في صفقتهم(٨).

---

(١) تفسير الطبري ٦/٢١

(٢) تفسير الطبرى ٦/٢١

(٣) تفسير الطبرى ٦/٢١

(٤) تفسير الطبرى ٦/٢١

(٥) تفسير الطبرى ٦/٢١

(٦) تفسير الطبرى ٦/٢١

(٧) تفسير الطبرى ٦/٢١

(٨) تفسير الطبرى ٦/٢١

وقال كفّار قريش عناداً واستكباراً : هلاّ أُنْزِل على محمّد من ربّه آياتٌ ماديّةٌ محسوسة كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى، بدلاً من القرآن الكريم الآية البيانيّة العقليّة. قل يا محمّد إنّما الآيات من عند الله تعالى، فهو عزّ وجلّ الّذي يختار لنبيّه الآية أو الآيات الكفيلة بإقناع العقلاء من أمّة كلّ نبيّ. وليس محمّد ﷺ وكلّ واحد من النّبيّين والمرسلين السّابقين عليهم أجمعين صلوات ربّ العالمين وسلامه سوى النّذير لقومه البيّن النّذارة بين يدي العذاب الشّديد يوم القيامة، والبشير للمؤمنين.

أتمادى كفّار قريش في عنادهم واستكبارهم ولم يكفهم أنّ الحقّ جلّ وعلا أنزل عليك يا محمّد الكتاب العزيز المعجزة البيانيّة العُظْمى، والقرآن المجيد الّذي يُتْلَى عليهم في كلّ آن، كي يتدبّروه في كلّ زمان ومكان، والّذي تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين. إنّ في كون آية المصطفى ﷺ الكبرى هذا الكتاب العزيز دون سواه من الآيات لرحمةً من الله تعالى تسع المؤمنين إذ تهديهم إلى الصّراط المستقيم وتنير لهم السّبيل، وعظةً وعبرةً لهم إذ تعصمهم بإذن الله تعالى من عثرة اللّسان وزلّة القدم وسوء المنقلب.

إنّ آية القرآن الكريم خالدةٌ إلى يوم الدّين وليس كالآيات المحسوسة الّتي يشاهدها بعض المعاصرين للنّبيّ الكريم. ثمّ إنّ العرب أمّةُ بيانٍ والقرآنَ الكريم معجزةٌ بيانيّةٌ يظلّ التّحدّي قائماً بها إلى يوم الدّين. إنّ المطلوب من المعاندين المستكبرين أنّ يهجروا سبيل الغيّ وأنّ يسلكوا سبيل الرّشد فيؤمنوا ويتّبعوا الرّسول النّبيّ الأمّيّ محمداً ﷺ، ويفردوا الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة.

وفي حال إصرار الكافرين الّذين لا تنقصهم الحجّة على العناد والاستكبار فرَّ إلينا يا محمّد وتوكّل علينا جرياً على عادتك دائماً وقل لهم : كفى الله تعالى شهيداً بيني وبينكم، لي أو عليّ، مثيباً للمحقّ منّا أو منكم معاقباً للمبطل. إنّه عزّ وجلّ يعلم ما في السّماوات والأرض، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، بما في ذلك ما تكنّه الضّمائر وتخفيه الصّدور وتوسوس به النّفوس.

لقد أوحى الله تعالى إليّ أنّ الّذين آمنوا بالباطل واتّسموا بالشّرك، وكفروا بالله تعالى، وجحدوا وحدانيّته عزّ وجل، أولئك هم الخاسرون في تجارتهم، المغبونون في صفقتهم.

روى البخاريّ ومسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: ما من نبيٍّ إلاّ وقد أُعْطِيَ ما آمن على مثله البشر، وإنّما كان الّذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أنّ أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة(١).

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٩٥ وصحيح البخاري ٩/ ١١٣ وفتح الباري ١٣/ ٢٤٧ حديث رقم ٧٢٧٤ و٩/ ٣ حديث رقم ٤٩٨١ وصحيح مسلم ٢/ ١٨٦

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ
مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

ولولا أجلٌ مسمّى : الأجل المدّة المضروبة للشّيء(١)

يوم يغشاهم العذاب: يسترهم ويغطّيهم(٢).

تجاوز الكافرون مراحل الكفر والصّدّعن سبيل الله تعالى والعناد إلى الاستهزاء. إنّهم يستعجلون العذاب على سبيل الاستهزاء. وإنّ الإيماءة إلى استهزاء القوم في القول: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ يفصّلها قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنفال(٣). ﴿وإذْ قالوا اللّهمّ إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾.

ولولا أنّ الحقّ جلّ وعلا جعل لعذاب القوم موعداً محدّداً هو يوم القيامة لجاء العذابُ المستهزئين في هذه الحياة الدّنيا حسب طلبهم. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تجمع بين جملتي: «جاء» : و«أتى» في القول : ﴿ولولا أجلٌ مسمّى لجاءهم العذاب وليأتينّهم بغتةً وهم لا يشعرون﴾ وكما دلّت جملة : «جاء» على القرب الزّمانيّ دلّت جملة : «أتى» على البعد الزّمانيّ. والمعنى: وإنّ العذاب ليأتينّهم فجأةً وهم لا يشعرون. بإتيانه مستقبلاً. وهذا العذاب الّذي سيأتي القوم يوم القيامة قد يسبقه عذابٌ في الحياة الدّنيا يكون فيه هلاكهم ورحيلهم من الحياة

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «أجل» ١/ ١٣

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «غشى» ٢/ ٤٦٧

(٣) الآية: ٣٢

الدّنيا، حياة العمل ولا جزاء، إلى الحياة الآخرة، حياة الجزاء ولا عمل.

وتنصّ الآية الكريمة الثّانية على عذاب النّار المحيطة بالكافرين يوم القيامة. إنّ الكافرين يستعجلون بالعذاب استهزاءً، وإن هذا العذاب آتٍ يوم القيامة لا محالة في هيئة النّار الّتي تحيط بالكافرين من جميع الجهات.

وتصف الآية الكريمة الثّالثة ذلك العذاب. ففي يوم القيامة يغطّى العذابُ الكافرين من فوق رؤوسهم ويأتيهم من تحت أرجلهم بعد أن أحاط بهم من كلّ الجوانب ويقول الموكّل إليهم العذاب من الملائكة: ذوقوا عقاب ما كنتم تعملون في الحياة الدّنيا من سيّئات وتأتون من موبقات.

(٢)

(ثواب المهاجرين والمجاهدين كبيرٌ في الأولى والآخرة، وعذاب الكافرين الجاحدين نعم الله تعالى عظيمٌ في الأولى والآخرة)

الآيات (٥٦ ـ ٦٩)

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

لنبوئنّهم : لننزلنّهم. مِنْ بوّأته منزلاً أي أنزلته(١).

غُرَفا: الغُرَف جمع الغرفة، والجمع كذلك غُرُفات وغُرَفات وغُرْفات. والغُرفة العُلِّيَّة من البناء . وسمِّي منازل الجنّة غُرَفا(٢).

وكأيّن من دابّة : وكم من دابّة(٣).

ينادي الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الأولى المؤمنين الّذين سامهم مشركو قريشٍ الخسف وحملوهم على الهجرة إلى المدينة المنوّرة ويقول لهم: يا عبادى الّذين استحقّوا أنّ يضافوا إليّ إضافة تشريف لإيمانهم بي وتوحيدهم لي وتصديقهم رسولى وما أوحيت إليه من كتاب، إنّ أرضي واسعةٌ فهاجروا من المكان الّذي لا تستطيعون فيه أنّ تعبدوني وحدي لا شريك لي بمطلق الحرّيّة وتحوّلوا إلى المكان الّذي تستطيعون فيه أنّ تحقّقوا الهدف الّذي خلقتكم من أجله وهو أن تعبدوني وحدي ولا تشركوا بي شيئا. والمعروف أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، وبذلك تكون الهجرة واجبةً إلى يوم الدّين من المكان الّذي

(١) تفسير الطّبري ٨/٢١.

(٢) انظر لسان العرب : «غرف» ومفردات الرّاغب الأصفهاني : «غرف» ٢/٤٦٦

(٣) تفسير الطّبرى ٨/٢١

لا يستطيع المؤمن أنّ ينال حرّيّته الكاملة فيه كي يعبد الله تعالى وحده لا شريك له حق العبادة.

والآية الكريمة الثّانية تسلّى المؤمنين وتعزّيهم، وتخوّف الكافرين وتهدّدهم. إنّ كلّ نفسٍ سوف تذوق الموت، وسوف ترجع إلى الله تعالى، للثّواب في حقّ المؤمنين، والعذاب في حقّ الكافرين.

وكما كان ثواب المهاجرين عظيما كان عذاب المشركين أليما.

والآيتان الكريمتان الثّالثة والرّابعة تبيّنان صفات المؤمنين وثوابهم. إنّ الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن الكريم منهجاً، والّذين عملوا الصّالحات بمقياس الإسلام وأرادوا بعملها وجه ربّهم الأعلى، لينزلنّهم لله تعالى يوم القيامة من الجنّة غرفاتها وأعلى أبنيتها. ومن تحت تلك الغرفات تجرى أنهار الجنّة المتدفّقة دائماً بالماء واللّبن والخمر والعسل، وفي تلك الجنّة يخلد أولئك المؤمنون. نِعْمَ هذا الأجر ثواباً لمن يعملون الصالحات. إنّهم هم الّذين صبروا على الابتلاء، وعلى الطّاعات، وعن المعاصي، والّذين يتوكّلون على ربّهم عزّ وجلّ في كلّ شئونهم.

ولمّا كان المهاجرون قد تركوا أموالهم في مكّة المكرمة فإنّ الآية الكريمة الخامسة بقصد تسليتهم وحثّهم على الصّبر والتّوكّل على الله تعالى في كلّ شئونهم وبخاصّةٍ في مجال الضّرب في الأرض ابتغاء الفضل من الله تعالى والرّزق هي تقول لهم : كثيرة هي المخلوقات الّتي تدبّ على الأرض والّتي لا تحمل رزق يومها لعجزها ولكنّ الله سبحانه وتعالى يرزقها ويرزقكم من فضله جلّ وعلا. اصبروا أيّها المهاجرون وصابروا ورابطوا وجاهدوا في سبيل الله تعالى السميع لكلّ صوت العليم بكلّ نيّةٍ وفعل.

وَلَئِن

سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

اعترف الكافرون بتوحيد الرّبوبيّة، فالله سبحانه وتعالى هو الخالق الرّازق المدبّر الفعّال لكلّ شيء. والآية الكريمة من الأدلّة على اعتراف الكافرين بتوحيد الرّبوبيّة. ولئن سألت يا محمّد مشركي قومك، ولئن سألت أيّها الإنسان مشركي العرب: مَنْ خلق السّماوات السّبع والأرضين السّبع وسخّر الشّمس والقمر للنّاس في المقام الأوّل دائبين وكلٌّ يسبح في فَلَكِه ليقولُنّ: الله تعالى وحده لا شريك له هو فاعل كلّ ذلك.

ولمّا كان الاعتراف بتوحيد الرّبوبيّة لا يكفي، وهو توحيد الله تعالى بأفعاله عزّ وجلّ فهو خالق كلّ شيءٍ ومقدّره ومدبّره، بل لابدّ من توحيد الله تعالى بأفعال العباد بأنّ يفردوه جلّ وعلا بالعبادة، وهو ما يسمىّ بتوحيد الألوهيّة، لذا كان في عجز الآية الكريمة في القول: ﴿فأنّى يؤفكون﴾ إنكارٌ على المشركين إشراكهم مع الله تعالى في العبادة غيره. والمعنى: فأنّى تؤفكون وكيف تُصْرَفون عمّن فعل كلّ ذلك فلا تخلصون العبادة له وحده دون سواه، بل تشركون معه الآلهة الزّائفة العاجزة في العبادة!

وهكذا تشير الآية الكريمة إلى كلٍّ من توحيد الرّبوبيّة الّذي أقرّ به المشركون، وتوحيد الألوهيّة الّذي لم يقرّوا به فأشركوا مع الله تعالى في العبادة الآلهة الّتي جاء على لسانهم القول بحقّها في سورة الزُّمر(١): ﴿ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى﴾

---

(١) الآية ٣

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

لحكمة بالغة قدّرها الحكيم العليم كان مشركو مكّة في الجملة هم الّذين بسط الله تعالى لهم الرزق، وكان المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ هم الّذين قدر الله تعالى لهم الرّزق وضيّقه عليهم. وممّا عمّق من فقر المؤمنين أنّهم حينما هاجروا إلى المدينة المنوّرة لم يستطيعوا أن يحملوا أموالهم معهم. وممّا جاء دليلاً على زيادة المهاجرين فقراً إلى فقرهم قول الحقّ جلّ وعلا عنهم في سورة الحشر(١) : ﴿للفقراء المهاجرين الّذين أُخْرِجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله. أولئك هم الصّادقون﴾.

ولمّا كان بسط الرّزق أوتضييقه ليسا دليلاً على كرامة العبد عند الله تعالى أو هوانه فإنّ الآية الكريمة تتحدّث في هذه المسألة المهمّة. إنّ الله سبحانه وتعالى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده اختباراً ليعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ أيشكر العبد لله تعالى نعمه العظيمة أم يكفر. وإنّ الله سبحانه وتعالى يضيّق الرّزق على من يشاء من عباده ابتلاءً ليعلم جلّ وعلا على ظهورٍ أيصبر العبد أم يجزع. إنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ بمن يستحقّ من عباده أنّ يوسّع عليه الرّزق أو يضيّقه امتحاناً واختباراً. والمعروف أنّ الإيمان شطران، شطرٌ شكرٌ وشطرٌ صبر. وكما يختبر الله تعالى عبده بالضرّاء يختبره بالسرّاء، فليكن العبد على حَذَر.

---

(١) الآية ٨

وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

فأحيا به الأرض : بإنباته النّبات فيها(١).

من بعد موتها: من بعد جدوبها وقحوطها(٢).

الآية الكريمة تشبه الآية الكريمة قبل السّابقة الّتي تبدأ بالقول نفسه : ﴿ولئن سألتهم﴾ وكذلك هي تتحدّث في توحيد الرّبوبيّة الّذي يقرّ به المشركون وتومىء إلى توحيد الأولوهيّة الّذي لا يقرّ به المشركون.

إنّ الآية الكريمة تقول للمصطفى ﷺ أصلا، لكلّ مؤمنٍ تبعاً، ولئن سألت المشركين أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من نزّل من السّماء ماءً مباركاً عذباً فراتاً فأحيا به الأرض بالنّبات من بعد موتها وجدبها بسبب الجفاف ليقولُنّ الله تعالى وحده لاشريك له هو الّذي فعل ذلك. ولمّا كان جواب المشركين على السّؤال سديداً كان التّعقيب عليه بالقول: ﴿قل الحمد لله﴾ والمعنى قل يا محمّد الحمد لله تعالى الّذي أجرى الحقّ على ألسنة المشركين فقالوا الصّدق.

ويترتّب على الجواب عن السّؤال المنطوق به سؤالٌ مفهومٌ موجّه إلى المشركين وهو على النّحو التّالي: ما دام الله تعالى هو الّذي نزّل من السّماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها لأنّه هو وحده القادر على ذلك، فلماذا لا ترتّبون النّتيجة الصّحيحة على المقدّمة الصّحيحة؟ لماذا لا تفردون الله تعالى بالعبادة، ولماذا تشركون معه في العبادة غيره؟

ولمّا كان السّبب في ارتكاب القوم الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك أنّهم عطّلوا عقولهم واقتفوا آثار آبائهم وأجدادهم المشركين فإنّ التّذييل يومىء إلى تعطيل القوم المشركين عقولهم: ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾.

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٩.

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/ ٩

إنّ عقول القوم قد عطّلوها في مجال توحيد الألوهيّة، لهذا هم مع اعترافهم بأنّ الله تعالى هـو الّذي يحيى الأرض من بعد مـوتها فتنبت من كـلّ زوجٍ بهيج، وميدان هذا الاعتراف توحيد الرّبوبية، وهم يشركون مع الله تعالى في العبادة غيره لأنّهم عطّلوا عقولهم. وهذا التّعطيل للعقول أومأ إليه التّذييل، كما أومأ إلى عدم إقرار المشركين بتوحيد الألوهيّة.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

لهي الحيوان: لفيها الحياة الدّائمة الّتي لا زوال لها ولاانقطاع ولا موت معها[1] والحيوان مقرّ الحياة. ويقال على ضربين: أحدهما: ما له الحاسّة. والثّاني ما له البقاء الأبديّ وهو المذكور في الآية الكريمة. وقد نبّه بقوله: ﴿لهي الحيوان﴾ أنّ الحيوان الحقيقيّ السّرمديّ الّذي لا يَفْنَى لا ما يبقى مدّةً ثمّ يَفْنَى[2].

جعل المشركون الحياة الدّنيا منتهى همّهم، لذلك حرصوا على متعها الرّخيصة، وألهاهم التّكاثر، وشغلهم عن عبادة الله تعالى التّفاخر بالأموال والأولاد والزّينة، واحتقروا في أعماقهم المؤمنين لأنّهم في مجموعهم فقراء مستضعفون في الأرض. وقد أفضى سوء معاملة المشركين للمؤمنين إلى هجرة المؤمنين من مكّة إلى المدينة فخلا الجوّ للمشركين، واستولوا على ما أمكن لهم الاستيلاء عليه من أموال المؤمنين. ولم يزدد المشركون إلاّ افتتاناً بهذه الحياة الدّنيا.

إن الحياة الدّنيا ليست في حق المؤمنين المتّقين، بشأن غير أعمالهم الصّالحة الّتي أرادوا بها وجه الله تعالى، ليست إلاّ ضرباً من اللّهو والعبث واللّعب والباطل، يستوى في ذلك هازل الأعمال وجادّها لأنّها لا يراد بها وجه الله تعالى، فكيف بأعمال المشركين الّتي تفقد بالضّرورة الشّرطين الضّروريّين لتفضّل الله تعالى بقبول تلك الأعمال أو تفقد أحدهما. وهذان الشّرطان هما الصّواب، بأنّ تكون الأعمال صالحةً بمقياس الإسلام، والإخلاص، بأنّ يريد العبد بعملها وجه الله تعالى وحده لا شريك له.

إنّ أعمال المشركين ضدّ المصطفى ﷺ والمؤمنين ودين الإسلام خاسرةٌ كلّها، وإنّ عليهم وزرها.

وإنّ الآية الكريمة تريد أن تقول للنّاس أجمعين، مؤمنين وكافرين: إنّ هذه

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٩

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حيي» ١/ ١٨٣

الحياة الدّنيا بشأن غير الأعمال الصالحة بمقياس الإسلام وغير الأعمال الخالصة لوجه الله تعالى ليست سوى لهوٍ ولعب، لأنّ الحياة الدّنيا نفسها خارج إطار الأعمال الّتي توافر لها شرطا القبول بفضل الله تعالى ليست سوى لهوٍ إن كانت غير جادّة، ولعبٍ إن كانت جادّة.

إنّ على غير المؤمنين أن يتحوّلوا مؤمنين. وإنّ على المؤمنين أجمعين أن يريدوا بأعمالهم الصالحة بمقياس الإسلام وجه ربّهم الأعلى عزّ وجل.

أمّا الحياة الحقيقيّة فإنّها الدّار الآخرة، لأنّ الحياة فيها خالدة تالدة. إنّ أهل الجنّة خالدون في الجنّة بفضل الله تعالى. وإنّ أهل النّار خالدون في النّار بعدل الله تعالى. ليت المشركين يعلمون أنّ الحياة الحقيقيّة هي في الآخرة كي يؤمنوا ويعملوا صالحاً ويريدوا بأعمالهم وجه الله تعالى كي يكونوا منعّمين في الجنّة الّتي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وممّا يعمّق من تحقير هذه الحياة الدّنيا مجيء اسم الإشارة الدّالّ على القرب: «هذه»[1] في القول: ﴿وما هذه الحياة الدّنيا إلاّ لهوٌ ولعب﴾.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ١/ ٣٩

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى
ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

ليكفروا : اللّام لام العاقبة. يكفروا: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللّام وعلامة النّصب حذف النّون لأنّه من الأفعال الخمسة(١).

الآية الكريمة الأولى تشير إلى الموطن الوحيد الّذي يقرّ فيه المشركون بتوحيد الألوهيّة. إنّهم حينما يكونون في موطن الخطر في أعماق البحر فيهيج البحر ويضطرب الماء ويأتيهم الموج من كلّ مكان والموت من كلّ ناحية. في ذلك الموطن الشّديد والموقف العصيب وما شاكله من مواطن ومواقف تغيب عن المشركين آلهتهم المزعومة، وينسونها تماماً، ويخلصون الدّعاء لله تعالى وحده لا شريك له، ويعلنون أنّهم إذا نجّاهم الله تعالى من ذلك الموت المحقّق فإنّهم لن يشركوا معه أحداً أبدا.

فلمّا نجّاهم الله تعالى من الموت وأوصلهم إلى شاطىء الأمان وبرّ السّلامة تكون المفاجأة غير المتوقّعة منهم إذ يعودون إلى الشّرك، وربّما قبل أن تجفّ أقدامهم على شاطىء البحر، وذلك على غرار طلب بنى إسرائيل من موسى عليه السلام فور وصولهم إلى برّ الأمان أن يجعل لهم آلهةً على غرار آلهة المشركين الّذين وجدوهم على السّاحل، بعد أن جاوز الله تعالى ببني إسرائيل البحر وأنجاهم إلى السّاحل.

وهكذا لا يقرّ المشركون بتوحيد الألوهيّة ولا يفردون الله تعالى بالعبادة إلاّ في لحظة الخطر وحدها ووقت الشّدّة. أمّا قبل ذلك وبعده فإنّهم مشركون. وقد عرفنا أن المشركين يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة دائماً، ولكن ذلك لا ينفعهم، لأنّهم

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٤٧

يشركون مع الله تعالى غيره في العبادة، أي لا يقرّون بتوحيد الألوهيّة.

وما هي عاقبة تورّط المشركين في الشّرك مرّةً أخرى بمجرّد الوصول إلى برّ الأمان؟ أن يكفروا بما آتاهم الله تعالى من نعم، فبدلاً من شكر الله تعالى عليها هم يكفرون، وهم كذلك ينغمسون في متع الدّنيا الرّخيصة الزّائلة لأنّهم جعلوا الحياة الدّنيا أكبر همّهم ومنتهى أملهم. إنّ هؤلاء سوف يعلمون يوم القيامة عظيم خسارتهم حينما يدخلون النّار ويصلون حرّها ويخلدون فيها.

ومن الآيات الكريمات الّتي فصّلت هذه المعاني قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الإسراء[1]: ﴿ربّكم الّذي يزجي لك الفلك في البحر لتبتغوا من فضله. إنّه كان بكم رحيما. وإذا مسّكم الضّرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إيّاه فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفورا. أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرّ أو يرسل عليكم حاصباً ثمّ لاتجدوا لكم وكيلا. أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الرّيح فيغرقكم بما كفرتم ثمّ لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾.

---

(١) الآيات ٦٦ ـ ٦٩

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

ويتخطّف النّاس من حولهم وتسلب النّاس من حولهم قتلاً وسباء(١)
والخطف والاختطاف الاختلاس بالسّرعة(٢)

أفبالباطل يؤمنون: أفبالشّرك بالله يقرّون بألوهة الأوثان بأنّ يصدّقوا(٣).

يكفرون : يجحدون(٤).

إنّ كفّار مكّة الّذين عادوا إلى الشّرك بعد أن نجّاهم الله تعالى من الموت بإنقاذ السّفينة من الغرق أيجهلون أنّ الّذي أنعم عليهم بالنّجاة من الغرق في البحر، هو الّذي أنعم عليهم بالأمن في البرّ. أعمي المشركون ولم يروا أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لهم في مكّة المكرمة حَرَماً آمناً ويُتَخطّف النّاس من حولهم بالقتل، ويؤخذون على غِرّةٍ بالسّلب والنّهب. إنّ الله تعالى الّذي آمنهم من الخوف في البحر هو الّذي آمنهم من الخوف في البرّ، فلماذا يفردون الله تعالى بالعبادة في البحر ولا يفردونه عزّ وجلّ بالعبادة في البرّ، وهو الله تعالى الواحد الأحد في البحر وفي البرّ ﴿وهو الّذي في السّماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ وهو الحكيم العليم﴾(٥).

أفبالباطل والشّرك والآلهة العاجزة يؤمن المشركون ويصدّقون، وبنعمة الله تعالى الواحد الأحد العزيز الحكيم القدير القهّار يكفرون ويجحدون! أيّ منطقٍ سقيمٍ هذا الّذي يعتنقه المشركون. إنّهم يشركون الأوثان العاجزة المقهورة الّتي لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها ضراً ولا نفعاً، ولا تملك موتاً ولا حياةً ولا نشورا.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ١٠.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خطف» ١/ ٢٠٠.

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ١٠

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ١٠

(٥) سورة الزّخرف ٨٤

ومن البيّن أنّ كفّار مكّة يشتركـون مع المشركين في ارتكاب الذّنب الّذي لا يغـفره جلّ وعـلا وهو أن يشـرك به عزّ وجلّ فـي العبـادة سواه، ويزيـدون عن المشركـين الآخرين سوءاً، لأنّ الله تعـالى خصّهـم بالحرم الآمن، وهم يـجحدون هذه النّعمة، ويبدّلون نعمة الله تعالى عـليهم كفراً، ويتورّطون في الشّرك، الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

إنه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذباً فجعل لله تعالى أنداداً وأشرك معه جلّ وعلا في العبادة سواه، أو كذّب بالحقّ لمّا جاءه، وبمحمّد ﷺ الّذي أرسله عزّ وجلّ بدين الإسلام، وأوحى إليه القرآن الكريم الّذي تبيّنه السّنّة النّبويّة المطهّرة.

أليس في جهنّم مثوًى للكافرين ومأوى؟ بلى إنّ مصير الكافرين يوم القيامة الخلود في نار الجحيم.

وهكذا ينال المشركون نصيبهم من العذاب، وبخاصةٍ مشركو قريش الّذين ساموا المسلمين الخسف وحملوهم على الهجرة.

وَٱلَّذِينَ
جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

ينال المؤمنون الّذين جاهدوا في الله تعالى حظّهم من الثّواب، وبخاصّة المهاجرون الّذين أخرجهم المشركون من مكّة المكرمة فتركوا أموالهم ونجوا بدينهم.

إنّ آخر آيات السّورة الكريمة تقرّر أنّ الّذين جاهدوا في الله تعالى، واجتهدوا في مرضاته، وأخلصوا نيّاتهم، وأرادوا وجه الله تعالى وحده لا شريك له في جهادهم أعداء الله تعالى باللّسان والقلم والسّنان وفي العمل على نشر دينه، وإرشاد عباده إلى الطّريق القويم، والأخذ بأيديهم إلى الصّراط المستقيم، إنّ أولئك الّذين تلك صفاتهم ليهدينّهم الله تعالى السّبل الموصلة إليه، وليأخذنّ بأيديهم، ولينيرنّ بصائرهم، وليثبّتنّ أقدامهم، وليسدّدنّ خُطاهم، وليبلّغنّهم مرضاته. وإنّ الله سبحانه وتعالى لمع المحسنين الّذين بلغوا مرتبة الإحسان بالمعنى الّذي بيّنه الحديث النّبويّ الشّريف بأنّ تعبد الله كأنّك تراه فإنّ لم تكن تراه فإنّه يراك(١).

ويأتي على رأس المحسنين من عباد الله تعالى الصّالحين، المهاجرون في سبيل الله تعالى الّذين أُخرِجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيله عزّ وجل، وقاتلوا أعداء الله تعالى وقُتِلوا شهداء في سبيل الله تعالى.

وهكذا ينال المؤمنون المتّقون، وبخاصّة المهاجرون حظّهم الموفور في السّورة الكريمة الّتي تتحدّث عن الهجرة كثيراً.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٠

تعقيب

سورة العنكبوت المكّيّة بدأت بإحدى عشرة آيةً مدنيّةً نزلت بعد الهجرة. وسورة العنكبوت من أواخر ما نزل من المكّيّ من القرآن قبل الهجرة. وتهدف السّورة الكريمة إلى ترسيخ أسس العقيدة وتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة المؤمنين الّذين سامهم المشركون الخسف وأرغموهم على الهجرة إلى كلٍّ من الحبشة والمدينة المنورة. ومن أهمّ ما تتّصف به السّورة الكريمة نصُّها في الآية الكريمة الحادية عشرة على المنافقين، قال تعالى: ﴿وليعلمنّ الله الّذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين﴾ وحثُّها في الآية الكريمة السّادسة والخمسين على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان كي تتحقّق الحرّيّة المطلقة لعبادة الله تعالى حق العبادة. قال تعالى: ﴿يا عبادي الّذين آمنوا إنّ أرضي واسعةٌ فإيّاي فاعبدون﴾ ونصُّها في الآية الكريمة السّادسة والعشرين على هجرة إبراهيم عليه السّلام بأمر ربّه عزّ وجلّ من بلاد العراق إلى بلاد الشّام. قال تعالى: ﴿فآمن له لوط. وقال إنّي مهاجرٌ إلى ربّي إنّه هو العزيز الحكيم﴾ وضربُها في الآية الكريمة الحادية والأربعين المثل بوهن بيت العنكبوت دليلاً على وهن الآلهة المزعومة. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعملون﴾.

وقد نال في السّورة الكريمة، بدرجةٍ كبيرةٍ من التّوازن، حظَّه موفوراً كلٌّ من المؤمنين المهاجرين المجاهدين، فما أكثر نعوتهم، ومِنَ الكافرين المعاندين المستهزئين، فما أكثر عيوبهم.

وبشأنّ ترابط معاني السّورة الكريمة ووحدتها الموضوعيّة نذكر النّقاط التّالية.

١ ـ تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة ﴿الم﴾ وجرياً على عادة كلّ السّور الكريمة الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة تنتصر السّورة الكريمة للقرآن الكريم. وهي من السّور الكريمات القلائل الّتي يجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم على التّراخي. وقد جاء الحديث عن القرآن الكريم في الآيات الكريمات (٤٥ ـ ٥٢).

٢ ـ ابتدأت السّورة الكريمة المكّيّة بإحدى عشرة آيةً مدنيّة.

وفي هذه الآيات الكريمات جاء الحديث عن المؤمنين المجاهدين المهاجرين وثوابهم، وعن الكافرين والمنافقين وعذابهم.

وقد اشتمل الحديث عن المؤمنين على الأمر ببرّ الوالدين، وعلى النّهي عن طاعتهما حينما يدعوان الأبناء إلى الشّرك. ويلحق بذلك نهيهما الأبناء عن الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان.

إنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى ولو كان الدّاعي الوالدين أو أحدهما. وقد تحدّثت آيتان كريمتان اثنتان عن المنافقين.

كما بلغ حُمْقُ الكافرين إلى حدّ دعوتهم المؤمنين إلى الارتداد عن الإسلام وتكفّل الكافرين كَذِباً بِحَمْل أثقال المؤمنين إنّ كان ثمّة بعثٌ وجزاء! إنّهم حسب زعمهم سوف يحملون أثقالهم وأثقال الّذين يضلّونهم عن سواء السّبيل وهيهات.

وهكذا تتحدّث السّورة الكريمة في صدرها عن الفئات الثّلاث الموجودة في مكّة والمدينة وهي المؤمنون والكافرون والمنافقون.

وسوف تتحدّث عن أهل الكتاب وعن يهود منطقة المدينة المنورة بالذّات الّذين يمثّلون فئةً اجتماعيّةً رابعةً آنذاك. وبذلك تتحدّث سورة العنكبوت الكريمة عن كلّ الفئات الّتي كانت موجودةً آنذاك في كلٍّ من مكّة والمدينة. وكأنّ السّورة الكريمة بحديثها عن المنافقين وأهل الكتاب تشير إلى هاتين الفئتين اللّتين أخذ المهاجرون يتعاملون معهما بعد الهجرة مباشرة.

٣ ـ تثبّت السّورة الكريمة فؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة المؤمنين بالحديث بعد ذلك عن كوكبةٍ من النّبيّين ونصر الله تعالى المؤمنين ودحر المشركين. إنّ السّياق يتحدّث عن نوحٍ عليه السلام أوّل الرّسل الكرام والأب الثّاني للبشريّة، وعن إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء. وقد جعل الله تعالى في ذرّيّته عليه السلام النّبوّة والكتب السّماويّة. وعن لوطٍ عليه السلام ابن أخي إبراهيم عليه السلام. وعن شعيبٍ عليه السلام الّذي أرسله الله تعالى إلى مدين. وعن عادٍ قوم هودٍ عليه السلام وعن ثمود قوم صالحٍ عليه السلام، وقد أهلك الله تعالى كلاً من عادٍ وثمود، كما خسف الأرض بقارون وهو من قوم موسى عليه السلام، وأغرق

فرعون ووزيره هامان الّـلذين كذّبا موسى عليه السلام. إنّ كـلّ هؤلا المكذّبين قد أخذه الله تعالى بذنبه فمنهم من أرسل عليه حاصباً كقوم لوط عليه السلام، ومنهم من أخذته الصّيـحة كمدين وعاد وثمود، ومنهم من خـسف الله تعالي به الأرض كقارون، ومنهم من أغرقه الله تعالى كقوم نوح عليه السلام وفرعون وهامان.

ويتأكّد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة المؤمنين بأمور:

أ ـ في أثناء حديث السّورة الكريمة عن إبراهيم عليـه السّلام الّذي بعث الله تعالـى محمداً ﷺ بحنـيفيّته علـيه السلام السّـمحة في صورتهـا الثّانية الكـاملة والأخيرة تـأتي ستّ آيات كريمات مـعترضات (١٨ ـ ٢٣) ولشدّة تـلاحم الآيات الكريمات في السّياق ذهب بعض العلماء إلـى أنّها على لسان إبراهيم عليه السلام. ويرجح ـ والله تعالى أعلم ـ أنّـها آياتٌ معترضةٌ توجّه إلى كفّار مكّة بـقصد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وأفـئدة المؤمنين. ووراء ذلك هي توجّه إلى الـكافرين في كلّ زمان ومكان. وهذه هـي الآيات الكريمات الستّ. قال تعـالى: ﴿وإن تكذّبوا فقد كـذّب أممٌ من قبلكـم وما على الرسول إلاّ الـبلاغ المبين. أو لم يـروا كيف يبدىء الله الخلق ثمّ يعيده. إنّ ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثمّ الله ينشىء النّـشأة الآخرة. إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير. يعذّب من يشـاء ويرحم من يشاء وإلـيه تُقْلَبون. ومـا أنتم بمعجزيـن في الأرض ولا في السّماء وما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصـير. والّذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذابٌ أليم﴾.

وإنّ حديث السّورة الكريمة عن إبراهيـم عليه السلام بدون الآيات الكريمات السّتّ المعترضات أكثر من الحديث عن أيٍّ من النّبيّين الآخرين وأممهم المكذّبة.

ب ـ في أثناء الحديث عن إبراهيم علـيه السلام يجيء الحديث عن أمر الله تعالى له بالهجرة من بلاد الكفر وذلـك في الآية الكريمة السّادسة والعشرين. قال تعالى: ﴿فآمن مـن له لوط. وقال إنّي مهاجرٌ إلى ربّي إنّه هوالـعزيز الحكيم﴾ والمعروف أنّ السّورة الـكريمة نزلت في أثناء الممـارسة الفعليّة للهـجرة إلى كلٍّ من الحبشة والمدينة المـنورة. والمعروف أنّ المؤمنين لهم أسوةٌ حسنـةٌ بنصّ القرآن الكريم

في كلٍّ من محمّد وإبراهيم عليهما صلوات الله تعالى وسلامه.

د ـ جعلت السّورة الكريمة مَثَل الّذين اتّخذوا من دون الله تعالى معبودين لوهن الآلهة وهوانها كمثل العنكبوت الّتي اتّخذت بيتاً هو أشدّ البيوت وهناً وهواناً لأنّه مقبرةٌ جماعيةٌ لأكثر قاطنيه. وتلك الأمثال يضربها الله تعالى في القرآن الكريم كي يعقلها العالمون. ثمّ أفاضت السّورة الكريمة في الحديث عن القرآن الكريم الّذي ينبغي أنّ يُتْلَى في الصلاة وفي غير الصلاة، إضافةً إلى أنّه العمود الفِقَريّ لذكر الله تعالى الأكبر من كلّ طاعة. وإنّما كان الحديث مستفيضاً عن القرآن الكريم لأنّه معجزة المصطفى ﷺ الكبرى البيانيّة، وهو المبعوث في أمّة البيان. والقرآن الكريم كذلك هو السّلاح الأكبر للمصطفى ﷺ وللمؤمنين، فينبغي جهاد الكافرين بهذا الكتاب جهاداً كبيراً، وينبغي التّخلّق بأخلاقه والتّأدّب بآدابه في كلّ الميادين، بما في ذلك ميدان الدّعوة. إن الدّعوة إلى الله تعالى ينبغي أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وإنّ المجادلة ينبغي أن تكون بالّتي هي أحسن، إلاّ الّذين ظلموا من أهل الكتاب ومن غيرهم فإنّ من واجب المؤمنين أنّ يعاملوا الظّالمين بالمثل.

لقد أصرّ كفّار مكّة على كفرهم وعنادهم واستهزائهم. إنّهم يكفرون بالقرآن الكريم، ويطلبون بدلاً منه آياتٍ محسوسةً كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام، ويستهزئون باستعجال العذاب. إنّ عذاب الله تعالى آتٍ لا محالة، وفي يوم القيامة تحيط نار جهنّم بالكافرين من جميع الجهات.

٤ ـ يتوزّع حديث السّورة الكريمة بعد ذلك على المؤمنين المهاجرين المجاهدين وتبيين نعوتهم وثوابهم، وعلى الكافرين الّذين ساموا المؤمنين الخسف، ولم يقرّوا بتوحيد الألوهيّة إلاّ وقت الشّدّة وساعة الخطر فقط، واتّصفوا بكفران النعم فلم يشكروا لله تعالى نعمة الحرم الآمن الّذي يتخطّف النّاس من حوله قتلاً وأسراً وسبياً وسلباً. إنّ الكافرين إذا كانوا قد أقرّوا بتوحيد الرّبوبيّة وحده فإنّ ذلك لا ينفعهم، وإنّ عليهم أنّ يؤمنوا ويعبدوا الله تعالى وحده ويكونوا جزءاً لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للناس كي ينالوا ثوابهم.

وكان الحديث مستفيضاً عن المؤمنين الّذين يحثّهم السّياق على الهجرة، ويسلّيهم بأنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت، وفيها نفوس الكافرين الّذين ساموهم الخسف، فعليهم أنّ يستمرّوا في طريقهم ويصبروا ويتوكلّوا على الله تعالى، ويبيّن لهم، وهم الفقراء في مجموعهم، بأنّ الله تعالى هو الّذي رزقهم ورزق كلّ دابّة لا تحمل رزقها لعجزها. إنّ فقر المؤمنين ليس دليلاً على هوانهم على الله تعالى، وإنّ غنى المشركين ليس دليلاً على كرامتهم على الله تعالى. وإنّ هذه الدّار الأولى ليست إلاّ لهواً ولعباً، وإنّ الدّار الآخرة هي الحياة الحقيقيّة الخالدة.

إنّ الكافرين الظالمين الّذين يفترون على الله تعالى الكذب ويكذّبون بالحقّ لمّا جاءهم يزيديهم الله تعالى عمىً إلى عماهم ويخلدون في النّار. وإنّ المؤمنين المتّقين المهاجرين المجاهدين المحسنين يهديهم ربّهم جلّ وعلا في الحياة الدّنيا سبل السلام: ﴿ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم﴾(١) : ﴿دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ وتحيّتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أنّ الحمد لله ربّ العالمين﴾(٢).

٦ ـ هكذا يأخذ بعض المعاني في السّورة الكريمة بِحُجَز بعض، وهكذا تتجلّى وحدتها الموضوعيّة في طريقة القرآن الكريم الفذّة الّتي تقنع كلّ عقل، وتشبع كلّ نفس، وتطرب كلّ أذن. إنّ السّورة الكريمة المكّيّة في مجموعها تعمل على ترسيخ أسس العقيدة عن طريق حديثها المستفيض عن كلٍّ من المؤمنين وتبيين نعوتهم وثوابهم، والكافرين وتبيين قبائحهم وعقابهم. ولمّا كانت السّورة الكريمة قد نزلت في أثناء ممارسة المؤمنين عمليّة الهجرة إلى كلٍّ من الحبشة والمدينة المنورة فقد كان في السّورة الكريمة تسليةٌ للمؤمنين بوسائل مختلفة، من أهمّها الحديث عن الهجرة وثوابها صراحةً أو ضمناً. لقد كان الحديث صراحةً عن هجرة إبراهيم عليه السلام والحثّ على مطلق الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإيمان، وكان الحديث وراء ذلك ضمناً حينما أفاض السّياق في الحديث عن ثواب المؤمنين المهاجرين المجاهدين، وعن عذاب الكافرين المعاندين المستهزئين.

---

(١) سورة محمد ﷺ ٦

(٢) سورة يونس ١٠

ثانياً
سورة الرّوم